رحلات السائح

قصة

بقلم يوسف شرورو

أعيش حياة المنفى الاختيارية ، يفتح في داخلي سؤال :

ـ متى تنتهي هذه الحياة ؟

ويأتي سائق سيارتي ويقول بانكليزية مؤدبة :

ـ هل تريدني أن آخذك الى أي مكان هذه الليلة ؟

وتستأذن السكرتيرة الشقراء في الانصراف ، فالساعة قاربت الخامسة والنصف ، ولندن ينتهي يوم عملها في مثل هذه الساعة ، وأسير وحيدا في شارع « بارك لين » المزدحم بالعيون الكثيرة ، وتهرول الاقدام دون ضجة نحو بحيرات التجمع البشري الكائنة في محطات النفق ، وتصمت الضحكات . فالسهرة لم تبدأ بعد ، ويزين الوجوه تعب شتائي ممتع ، وتقول فتاة جذبة ترتدي معطفا رمادي اللون لزميلة لها :

ـ تمتعي في ليلك ، فليالي المتعة قصيرة ، سأراك في الغد ، باي باي .

وأنظر الى العيون المارة ، اللهفة تخمد فيها لتنطلق بعد ساعات ، والناس يصطفون في طوابير طوعية غير متعرجة،ينتظرون الباص الاحمر العجيب ، وبائع الصحف يصرخ بكلمات غير مفهومة ، وتشتري الايدي صحفه لتقتل فيها ضجر رحلة القطار الرتيبة ، وتتطاير خصلات شعر أصفر لفتاة تسير فوق الرصيف دون رفيق ، وأسأل نفسي بحيرة مفجعة :

ـ الى أين أيها الغريب الابدي ؟ ما الذي تفعله في هذه المدينة الخربة ؟

ويصدمني كتف نسائي ، فأعتذر ، واتابع سيري ، لاقف امام فندق « الدورشيستر » أتأمل الطبقة الارستقراطية وهي تتبختر في ملابسها المضحكة الطويلة ، وتشب الاشارة الخضراء تعلن عن سلامة الطريق أمامي ، فأندفع في سيري ، فالاصدقاء هناك ينتظرون . وأذكر ان أحدهم قال يصف وجهي لصديق له :

ـ وجهه تموت فيه عينان كشجرتين جافتين تثيران غبارا وشوكا .

وأنا عندما أحدق في المرآة أجد موتا ساكنا في عيني . لقد قضيت الايام في الهرب من مكان الى مكان ، وتعلمت كيف أفر من واقعي منذ كنت في العاشرة ، يوم أرغمت على الهرب من مدينتي الصغيرة مع بقية القطيع البشري ، ويوم قالت لي أمي : « منذ اليوم لن تكون لك أرض تنتمي اليها » .

كانت الام صادقة ، فقد ركضت ولهثت مثل كلب أجرب حتى وصلت الى لندن ، وما زلت أنفق أيامي بلا عمل حقيقي ، ولم أعثر بعد على الارض التي يجب أن أنتمي اليها ، فأنا ما زلت أعرفها وأحبها ، ولكن هل هي ما زالت تذكرني ؟؟

وصرخ صوت عربي من بعيد :

ـ ابراهيم ، ابراهيم ..

التفت خلفي لارى « سمير » يقفل باب سيارته السماوية ، ويتألق وجهه الصحي بابتسامة عذبة لي . وتقدم نحوي ببطنه المنتفخ دوما ، وبقامته القصيرة ليقول بسخرية يتقنها هو فقط :

ـ يا من تسير وحيدا ، هل لك ان تقف وتنظر خلفك لترى الوجوه المنتظرة ، لم لا تذهب اليهم ؟؟

ويجب أن أعترف بأنني لم اكن افهم المعاني التي تحتويها كلمات سمير البرجوازي ، فقد كنا نلقبه بـ « البرجوازي » لاقتنائه سيارة فخمة ، ومجموعة عديدة من البدلات والاحذية وربطات العنق الملونة ، وقفازات الجلد الفاخرة التي يستعملها عندما يقود سيارته . ابتسمت كالابله وصافحته دون كلام ، فضحك ضحكته البلورية الشهيرة ، وسار بجانبي نحو مقهى « انلونج » لنقابل الوجوه الاخرى المنتظرة هناك .

قالت سلفيا بصوت تسرح فيه انوثة جنسية حمراء :

ـ أهلا بالعرب ، الاصدقاء في الداخل ، ماذا تريدان هذا المساء ؟

اقترب سمير ليداعب وجهها الجذاب ، ونزلت أنا الدرجات الضيقة التي تقود الى « الكهف » ، حيث كنا نجتمع للحديث وللثرثرة والضحك الهزيل . وكانت لوحة كبيرة تتوسط الجدار الامامي تمثل « كازانوفا » المرحوم في جلسة غرامية . وكان الصديق مارون يحتضن الة التصوير التي أحضرها من بيروت ، ويتحدث بهمس مع الصديق خالد ، المفكر الدائم في ايقاف زحف الصلع البشع من رأسه ، وفتاة صغيرة تكشف عن فخذها الشهي وتفكر في ملء طلاسم الكلمات المتقاطعة في جريدة المساء ، وصوت فيروز العربي يزغرد في قلب لندن :

ـ ولك راجعة ، وحياة عيونك راجعة .

ويتدحرج سمير بقامته القصيرة ليزف لنا بشرى انتصاره بصوت مسرحي :

ـ أخذت موعدا من سلفيا ، سنأتي معي هذه الليلة لنستمع الى اسطوانة « شهرزاد » .

فلم نعلق على الخبر ، وتكومنا فوق مقاعدنا كحجارة جامدة نستمع الى زغاريد فيروز ونحلم بالانعتاق والانطلاق في شوارع عربية تظللها ابتسامات نضرة صادقة ، وتتخللها كلمات الحب والحنان المتدفقة فوق أرصفتها غير النظيفة ، المليئة بقصاصات الصحف ، وبالاصوات المرتفعة الآتية عبر أجهزة المذياع تلقي بأطنان من الكلمات الضخمة ، وبالصور الكبيرة المعلقة فوق دور السينما ، حيث يقتل الشباب وقتهم وحيويتهم .

وببطء قال مارون : ـ لا ترسل عينيك بعيدا وتحلم . ابحث عما تريد داخل رأسك ، لا بعيدا عن رأسك .

ونقلتني كلماته الى حياتي الرتيبة ، ففي كل صباح أحدق في اللوحة النائمة الخطوات المسماة « الى أين » وأقول لنفسي بسخرية بغيضة :

ـ ابتسم ليوم تافه جديد أيها الغريب ، فأيامك تافهة .

وفي كل صباح يقابلني وجه السائق الانكليزي وهو يردد تحيته الصباحية التي قالها لي منذ ثلاث سنين ، ويفتح باب السيارة الخلفي، لاتكوم في الزاوية اليسرى من السيارة المترفة السوداء ، الزاحفة نحو قلب المدينة حيث يقع مكتبي ، وقد كنت اطالع البيوت الانكليزية العتيقة الهادئة ، وانا ادخن سيجارتي الصباحية الثانية دون ان أكل شيئا ، واغلق عيني على الوجوه الكامدة العابرة .

في كل صباح يجب ان اكون خلف مكتبي في التاسعة صباحا ، لاقرأ الرسائل الواردة ، وأصرف الامور ، ثم اكتب بلغة عربية الى الرجال المسؤولين الجالسين هناك خلف مكاتبهم العربية الفخمة ، ويتسلط علي شعور العيش الفارغ ، فأنا أعيش الالم المنغمس بحزن كثيف ، وأتمرغ في ايام المنفى الاختيارية وتصلني البطاقات المزخرفة

الذهبية ، تدعوني الى حفلات براقة . ان جرس الهاتف لا يهدأ عن الانين ، والاصوات كثيرة لهجاتها ، وانا اقتل الحياة واغتالها قبل ان تشرق في نفسي . لقد كنت شابا تأكلني شهوة حية حين طرت الى هذه المدينة منتدبا للعمل فيها . الثلاثون سوف تلتصق بي بعد سنتين، فماذا فعلت خلال عمري الطويل السابق ؟ عمل صباحي ، ابتسامات مكتبية ، حفلات ، فتيات عديدات ، كتابة رسائل يركض الشوق فوق كلماتها . التفاهة تكسو جلدي القذر ، الفراش عفن من الزيارات النسائية الكثيرة . كلمات الحب ماتت ولم تعد تحمل قدسية في معانيها ، ونحن نجتمع هنا للحديث وللثرثرة وللضحك المسترسل ، وفي بلادنا يجتمع الاصدقاء مثلنا ، ولكن ، للحديث بصدق ولرسم الخطط ، ثم يتسللون ليلا عبر الاسلاك الشائكة ، ويعفرون وجوههم الصارمة بالتراب الفواح الذي يكسو وجه الارض هناك ، يزرعون الرعب المتفجر ، فترتعد قلوب الجرذان الذين توافدوا من كل ثقب قذر في العالم ، وأقاموا فوق ارضنا .

وسمعت صوت مارون يصرخ في أذني :

ـ لا تحلم يا ابراهيم ، فحياتك غير مخططة مثل حياتنا ، فهل تستطيع ان تخططها الان ؟ هذا هو السؤال .

وتوهج الضياع المتشرد داخل المكان ، حتى خيل الي اننا نعوم فيه دون هدف ، وجاءت سلفيا تتلوى بجسدها المعتق ، ووضعت امامي كوب الشاي الاحمر الغامق ، وابتسم لي « كازانوفا » من خلال لوحته المعلقة وغمزني بعينه اليسرى ، فقلت للاصدقاء بصوت لا بريق فيه :

ـ ما زلنا نسير في حياتنا عبر شوارع ثلجية غير ممهدة . ورحلات الثلج يتخللها السقوط الكثير ، المهم ان نقف ونزيل ما علق بنا لنتابع الرحلة .

ارتفعت يد خالد الكبيرة لتعيد ترتيب شعيرات رأسه ، واشتد التصاق مارون بآلة التصوير ، ورشف سمير من كوب الشاي ، وعم المكان صمت برق فيه بياض فخذ الفتاة الجالسة بالقرب من الطاولة المقابلة .

قال سمير ببطء : ـ ان اردت ان تعمل يا ابراهيم فعليك ان تتخلص من الوهم الذي يجعلك تؤمن بأنك تعمل ، فنحن هنا لم ننجز بعد شوارع الثلج ، لاننا لم نقف بعد السقوط الاول ، نحن نعوم في أيامنا كقطعة خشب تتقاذفها المياه ، ونحن نريد الهدف الذي يقود قطعة الخشب بعد ان يحولها الى قطع من لحم حي .

وهب خالد ليقول : ـ هذا صحيح ، فقد قرأت بأن الانسان حيوان ذو هدف .

وكان خالد هذا جاء الى لندن لدراسة الكيمياء منذ عشر سنين ، ولوث جسده كبقية الشباب بالجنس والحب ، وعمل في كل مصنع ومطعم وشركة ، واستعذب الحياة هنا متسكعا تتعلق بذراعه فتاة شعرها أشقر طويل ، وفي عاصمة بلاده حدثت ثورات وانقلابات ، كانت تفجر فيه حب العودة ، وتدفعه الى شارع « بيكاديلي » حيث تقع شركات الطيران الغنية . كان يقطع الشارع كله ، وهو يلتفت ليقرأ الاسماء ، حتى ينتقي اسم شركة ، ويحجز لنفسه مقعدا في طائرة تطير الى عاصمته ، ولكنه كان يرجع الينا ليقول بعذوبة ساذجة :

ـ لم أجد شركة الطيران التي تعجبني بعد .

قضى الحياة دون هدف في غرفة صغيرة دافئة ، اقام فيها عدة حفلات خاصة متع فيها نفسه ، يتحدث الانكليزية بلهجة جامعة « اكسفورد » الشهيرة ، ويحصي شعيرات رأسه ويتحسر على الشعر الاسود الجميل . والان ، وبعد سنوات عشر ، أسمعه يقول بألم : « لقد مرت ساعات عمري ببطء ، ثم بسرعة مذهلة ، حتى انني لم انتبه لمرورها . انني اريد هدفا اعيش من اجله ، اريد تجربة هادفة تزرع الثقة في نفسي حتى أثق بالاخرين هناك في بلادنا » .

نهضت الفتاة الصغيرة وغادرت المكان ، ووضعت سلفيا اسطوانة حب يغنيها « ري تشارلز » الزنجي الاعمى . واشعلت سيجارة وانا اقول لهم :

ـ ان الهدف يجب ان يحتوي الارض ، والعمل للارض ، عمل من اجل كل الناس . ان الذين يسيرون في شوارع بلادنا الان ، يحملون سلال الفاكهة والخبز والحلاوة الطحينية لزوجاتهم واولادهم ، ويجلسون في غرفهم يستمعون الى اغاني الحب الجريحة وهم يرشفون فناجين القهوة العربية ، ثم يقلبونها على قفاها ، علها تخبرهم عن الغيب والمستقبل . ان الصحف في بلادنا تحدثهم عن فيتنام والدومنيكان واندونيسيا ، ولا تحدثهم عن انفسهم ولا عن ارضهم المرتجفة هناك تحت رحمة ليل بارد بغيض .

واصمت كسيارة اندفعت لتصعد تلة صغيرة ، واحدق في المكان. فالمح ثلاث فتيات يجلسن حول الطاولة الاخرى ، ويصوبن عيونهن بدهشة نحو فمي . لقد كنت اتحدث بالعربية ، ولم انتبه لهن . وكانت واحدة تحمل وجها طفوليا وارادت ان تبتسم لي ، ولكنها بدلت ابتسامتها الى ضحكة هزيلة . اما مارون فقد حمل آلة التصوير واقترب منهن وهو يقول : ـ انا اجمع صور الفتيات الجميلات جدا ، هل لي ان التقط لكن صورة ؟ .

وتوهج المكان بضوء خاطف ، وضحكت الفتيات ، وتهامست شفاههن، وعاد مارون ليقول لنا بالعربية :

ـ سأضع هذه الصورة في التحقيق الصحفي الذي اكتبه عن «الحب في حدائق لندن » .

انني احب مارون كمن يحب اكلة شهية ، وآكل كلماته واضحك لعذوبتها . لقد حملته باخرة رديئة الى لندن ، بعد ان آمن بان العالم ينزع ريشه ويتوقف عن الطيران . وبعد ان عم حيانه ركود ، اراد ان يعيش تجربة التشرد ، فتشرد في مقاهي المجانين ، مصطحبا آلة التصوير، وتحدث مع فتيات واولاد ، وفكر بان يكتب تحقيقا يهز عالمنا العربي هناك، فكتب عن الشذوذ الجنسي ، وخالط المنحرفين من الرجال ، وتسكع في منطقة « ساوث كنزنجتون » يبحث عن تحقيق او صورة ، واستأجر غرفة في منزل يحمل الرقم «١٣» واحبته فتاة خافت ان تتزوجه فتركته، ولم يهتم للامر ، فالحياة تسير حاملة تجاربها اليه ، ولسانه يقذف بحكمته الشهيرة التي تقول : « لا ترسل عينيك بعيدا لتحلم ، ابحث عما تريد داخل رأسك ، لا بعيدا عن رأسك » .

وقد كان يتقن صنع « الفول المدمس » ، وكنا نجتمع في غرفته يوم الاحد لنلتهم فوله بشراهة لذيذة ، وينتفخ بطن سمير ، ويتذكر ايامه في قبرص حيث عمل عدة سنوات هناك ، كان يكرع فيها النبيذ اليوناني ، ويدخن السيجار الفاخر ، ويجمع الاحذية والقفازات الجيدة. ومنذ سنة ارسل للعمل في مدينة « ريدنك » القريبة من لندن ، وكنت اتذوق كلماته التي يصوغها باناقة ، وكنت احب سماع اغنياته التي كان يقلد فيها صوت وديع الصافي الرجل . وكان يتألم لتمزق الحياة في شخصياتنا ، فيذهب ليقتل الله في جسد فتاة تزوره ثلاث مرات كل اسبوع ، وكان يعشق لعبة « التنس » حتى يخفف من انتفاخ بطنه ، ويؤمن بجدية العمل ، لا بوهميته .

الناس يركضون في الشوارع ، ولندن تمطر مطرا غزيرا ، « وكازانوفا » ما زال يهمس في اذن حبيبته ، في اللوحة المعلقة ،واكواب الشاي فارغة امامنا ، والعيون تحدق في وجوه الفتيات الثلاث ، وتحلم بقضاء ليلة دافئة . كنت اذا نظرت الى فتاة لفترة طويلة ، اتخيلها تقف امامي عارية ، فانا ما زلت اعيش الجنس بالخيال ، كما اتخيل نفسي اسير في الشوارع برفقة فتاة بريئة ، اعيش معها البراءة من جديد . انني لم اعش الحب هنا ، فقد اكلتني الهزات ثم جمدتني وحيدا . لقد كان لي ذات يوم ام واخوة واخوات ، واصبح لي الان حبيبات وحبيبات ، ولكن ما الفرق ؟ انا اريد الام والاخوة ، والاصدقاء والارض ، اريد المدينة التي انتمي اليها ، فقد احببت الغربة مرة ثم كرهتها ، وعشقت التشرد حتى مزقني . اريد صدرا يحمل ترابي لاقبله وابكي فوقه . وقد قالت لي فتاة اسمها كاترين ذات مرة : « ان حبك جاف غير معطاء كحب لندن الجاف ، انت هنا امتلأت بالقش والغبار لان الناس هنا مثل اكوام القش العفن . » ومرة قالت لي فتاة تحمل

جها حنونا ، وكنت اناديها بالصغيرة : « احبك اكثر مما اعرف ، واحبك كثر مما تحتوي كلمة الحب . » ومرة كتبت لي امي رسالة حزينة قالت فيها : « اريدك هكذا دون هدايا ، ودون مناصب ، ودون امجاد ، اريدك ن تعود الينا فقط . »

وفي كل مساء اعود الى مقهى « انلونج » حيث اثرثر واضحك ثم افترق عن الاصدقاء ، لاعود الى بيتي في نهاية الليل ، وافكر وانا ادخن في معنى الغربة ، واتخيل الشوارع الثلجية غير المعبدة ، ورحلة الثلج التي تزحلقت فيها ولم انهض لاتابع سيري بعد .

اذكر ان اخي الكبير قال لي قبل سفري : « الابد للحياة وللبناء والجبال والانهار والارض ، نحن لنا الجزء الصغير من الحياة ، ان اردت ان تعمل فاعمل للابد ، اعمل للارض . »

وسافرت ولم اعمل لاحد ، وغصت ابحث عن التجربة خلف كل وجه ، وخلف كل جدار ، وقابلتني وجوه كثيرة ، وصدمتني جدران صلدة ، وسرت فوق شوارع كثيرة ، وما زلت ابحث عن الهدف كالاخرين. اذكر اننا اجتمعنا مرة لنقوم بعمل صغير يخدم القضية المنسية ، وقام واحد منا ليقول ، وعضلات وجهه متوثبة لا توحـــي بالثقة : « علينا ان نبين للاوروبيين هنا ، ان القضية قضية انسانية ، قضية اناس تركوا بلادهم تحت تأثير القوة ، وهم يعيشون في اماكن مبعثرة الان . » وما زلت اذكر باننا لم نجتمع بعد لقائنا الاول لعدم جدية العمل ، وجعلتني التجربة الفاشلة هذه اؤمن بان الحياة بلا معنى ، ولكن علينا ان نوجد المعنى لها . ان العالم فارغ ، اجوف المحتوى . ان القتال فوق كل مكان ، والسن تخطب في بناء شاهق رفع في نيويورك ، وكل الرجال ضعاف ، والغبش يغلق الطرق في وجوهنا ، نحن مجرمون لم نجد المعنى بعد ، ولم نخلق لنلعب دور الامير ، او القائد ، بل دور المتسكع الضائع المزيف ، والاخبار تأتي من هناك عن العمليات التي تهز القلب وتفرحه وتطلب ايضا ان نشارك بالعمليات بدل الثرثرة والحديث عن العمل . ان تعمل خير من ان تتفرج . من قال هذه الكلمات ؟ انسان نسيت اسمه ، قابلته صدفة في حافة « الفيل المجنون » .

قال سمير وهو يبتسم كعادته :

ـ تخيلوا ان صخرة كبيرة اغلقت باب المقهى فجاة ، وعزلتنا عن العالم في الخارج ، فكيف نعمل لدحرجتها وفتح الطريق امامنا للعودة الى عالمنا ؟

ضحك خالد الذي درس الكيمياء وفكر طويلا ، ثم قال :

ـ سوف اذيبها بمادة استحضرها من المواد الموجودة في المقهى ، قد تستغرق العملية اكثر من شهر .

قال مارون بسخرية صحفية : ـ ساكتب تحقيقا رائعا عن حياتنا خلال ايام الانعزال ، واتحسر فيه على العالم المزدحم بالناس والابتسامات والتعب والمنحرفين ، ثم اطلب منكم ان تندفعوا بوحدة كاملة لطرد الصخرة . قد لا تنجح العملية في البداية ، ولكننا سوف ننجح اذا واصلنا العمل معا .

وفكرت : هنا تجمعنا اربعة جدران ، يتعلق على واحد منها « كازانوفا » الوسيم ، وان حطت الصخرة على باب « الكهف » فسوف نتفلسف كثيرا قبل ان نجتمع ونقذف بها ، هنا نعيش ندخن ونلعق اكواب الشاي ، ونضحك لنكتة لطيفة يقولها مارون ، ونتحسس جسد سلفيا العتق بالانوثة الحمراء . هنا نتخيل اجساد الفتيات عارية لنمتص معهن ساعات اللذة . هنا نحلم بالشوارع البعيدة حيث تقام البنايات الشاهقة ، وحيث يسكنها اناس لا ينتمون الى الشوارع والى الارض ، هنا نتمنى ان نرتمي فوق التراب هناك ، ونلقط الجنون لاصفر والاحمر من على التلال . وان دفعنا الصخرة وانطلقنا تحت سماء لندن الباكية فسوف تحيطنا جدران المدينة ، ونعري كل فتاة نراها ، ونتحسس كل جسد طري ، وكل ثدي منتصب ، سنعيش الحياة ضمن غرفة واسعة اسمها لندن ، نستيقظ صباحا وندخن دون طعام ، ونحدق في اللوحة التائهة الخطوات المسماة « الى اين » ونتساءل بحيرة مفجعة : « الى اين ايها الضياع ؟ » .

وسيقود سمير سيارته السماوية « الكورتينا » واتكوم انا في الزاوية اليسرى من السيارة الفخمة التي يقودها سائق انكليزي ، وسيلتقط مارون صورا اخرى لفتيات جميلات . وسيفقد خالد شعـــر راسه ويبكي بصدق في غرفته الصغيرة ، عندما يسمع بالثورة وانجازاتها في بلاده .

هنا ، في داخل الكهف نحن موتى ، وهناك ، في العالم الخارجي نحن موتى نعوم في بحار عميقة من التفاهة ، نبتسم دوما دون ان نشعر ببريق الابتسامة ، ونغضب كاننا نمثل مسرحية . لم نحاول ان نهزم الصخرة وننطلق الى الشوارع والمكاتب والسيارات والناس ؟ ما الفرق بين حياتنا هنا ضمن جدران المقهى ، وحياتنا ضمن جدران لندن الزاهية ؟؟

قلت لسمير وانا انظر مباشرة الى عينيه :

ـ سقراط كان معتوها حينما قال ابحث عن نفسك ، علينا ان نبحث عن الاخرين لنجد انفسنا ، وعلينا ان نجد الهدف الذي يعمل له الاخرون اولا ، ومن ثم سنهزم الصخرة دون صعوبة ، وننطلق لا في شوارع لندن، بل في شوارع مدننا المليئة بالناس الطيبين .

لم تبتسم العيون ، وهبطت صخرة ضخمة حولت العقول الى الالات للتفكير ، واختفت الفتيات الثلاث ، وجاءت سلفيا تحمل اكواب الشاي من جديد ، وتراخت يد مارون التي تحتضن الة تصويره، وفكرت العقول بموت السمك التائه في بحيرات الضياع . ستنتهي حياة الصدا السرابي ، وستموت الابتسامة المهذبة التي تعلو وجهي في الحفلات . لن اسمع تحية السائق المتكررة ، سوف اعيش كما اريد ، دون اطارات وظائفية مزيفة ، ودون القاب لا تعني شيئا ، سازحف دون خوف في ليالي الصمت المرعبة ، وستفرح الايام الرتيبة الساكنة .

جاء صوت مارون الذي احب :

ـ هل تعني اننا يجب ان نطلق الشوارع اللندنية لننتسب الى شوارع عربية هناك ؟ هل تعني اننا يجب ان نعود ؟

لم اقل شيئا لان خالد حدق في بذهول ، ثم استقرت عيناه على وجه سمير . شعرت بان هزة عنيفة اصابت عقولنا ، فسمير لن يأخذ سلفيا معه لتستمع الى اسطوانة « شهرزاد » وخالد سيجد شركة الطيران التي تعجبه ، ومارون سيبيع الة التصوير ليشتري تذكرة باخرة رديئة تحمله الى بيروت ، وستجف مستنقعات القحط ، فالحياة لن يوقف استمرارها بطل مزيف ولا معتوه ، والزمن يجري دون رقيب، كنا نتحدث هنا عن التطور الذي سيغير انساننا العصري ، ولم نكن نعلم بان التطور الذي نريد ، هو تلك الارض المستلقية هناك يداعبها ندى صباحي تبخره شمس لم تعد تشرق على اهل تلك الارض . سنجتمع هناك ونتحدث لنعمل ، لا لنتدثر . سنرى الاصدقاء ، حين تتألق البسمات . ساقول لامي وانا احتضن وجهها الحزين : « سرت طويلا عبر شوارع ثلجية غير معبدة ، وسقطت كثيرا يا ام ، وعلقت بثيابي اشياء واشياء ، وتالمت وانا ابحث عن ارض انتمي اليها ، واخيرا عرفت يا ام بانني لن اكون شيئا الا اذا انتسبت لبلادي » .

وقفنا لحظات امام باب المقهى الخارجي ، لم تبتسم وجوهنا، ولندن ما زالت ترفع فوقها سماء كئيبة . لكنها سيارة سمير تنتظر دون رفيق، وشاب يتابط ذراع فتاة بثياب السهرة ، وفندق هيلتون يتطاول كعلب كرتونية بشعة ، ودون كلام افترقنا ، كل يسير في اتجاه الى بيته المؤقت في لندن ، وفي قلوبنا وعقولنا مكان اللقاء هناك .

احتواني شارع « بارك لين » العريض ، وسرت وحيدا ، وفح في داخلي سؤال :

ـ متى تنتهي حياة المنفى هذه ؟؟

قلت للسؤال : ـ عندما تموت رحلات الثلج ، واسير عبر شوارع تظللها شمس عربية ، المهم انني سابدأ رحلات الشمس الان .

لندن — **يوسف شرورو**